المشرق

الرتبة البطريركيَّة

نبذة في اصلها وتاريخها وحقوقها

للاب ميخائيل تايزبه اليسوعي

انَّهُ لمن الامور المقرَّرة الثابتــة انَّ السيد المسيح بانشائهِ كنيستهُ جعلها جماعةً منظورة تامَّة الأهبة وجهَّزها بكل ما تختصُّ بهِ الالفة النظاميَّة من تعدُّد الاشخاص المرتبطين بالوحدة السَّاعين وراء غاية معلومة تحت قيادة سلطة شرعيَّة ترجع اليها كلُّ الافراد. ولذلك نراهُ عزَّ وجلَّ قد دعــا كنيستهُ مرارًا باسم المُلك او المملكة او الملكوت (المشرق ٤: ٨٩٢). ويريد لهذا المُلك البقاء الدائم بحيث لا تقوى عليهِ ابواب الجحيم. وغنيٌّ عن الدليل انَّهُ لا مُلك بلا مَلك كما لا جسد بلا رأس. ولا بدَّ لهذا المُلك ان يكون مدبّرهُ واحدًا لئلا يعيب الجسم انقسام فيتمّ فيهِ قول الرب (لوقا ١١: ١٧): «انَّ كلَّ مملكة تنقسم على نفسها تخرب»

وكلٌّ يعلم انَّ هذا الرأس المنظور الذي اختارهُ الرب لتدبير كنيستهِ انَّما هو بطرس المدعو لذلك بهامة الرُّسل الذي عليهِ بنى المسيح كنيستهُ كما يجعل البناء على صخرة لا تتزعزع مهما صادمتها سورة الرياح واشتدَّت عليها الانواء.

على انَّ اختيار السيد المسيح لبطرس الصفا لم يمنعهُ عزَّ وجلَّ ان يصطفي لكنيستهِ رؤساء آخرين ادنى منهُ درجةً يذعنون لاوامرهِ ويساعدونهُ في مباشرة مهمتهِ العظمى. ولذلك نرى الرب لذكرهِ المجد بعد اختصاصهِ سمعان بطرس بالسلطان السامي على الكنيسة والرعاية العليا لقطيعهِ الناطق لم يهمل بقيَّة الرسل بل جعل لهم قسمًا صالحًا من سلطتهِ اذ ارسلهم الى العالم اجمع ليبشروا بالخلاص كلَّ الامم واعطاهم ان يحلُّوا ويربطوا

ويعلّموا ويرشدوا. وكما انّ البابوات خلفاء بطرس في سلطانه الاعظم على الكنيسة كذلك الاساقفة هم خلفاء الرسل في تدبيرها معهُ كما يشهد على ذلك سفر الاعمال حيث ورد على لسان بولس لكبار كهنة افسس ورُعاة كنائس آسيّة: (٢٠: ٢٨) «انّ الروح القدس اقامهم اساقفة ليرعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمهِ». فبيّن على وجه صريح انّ للاساقفة الشرعيين حقوقاً في سياسة الكنيسة ورعاية المؤمنين

هذا مجمل ما ورد في الكتاب الكريم عن الرئاسة البيعيّة اعني سلطةً أولى سامية تعمّ كل افراد الكنيسة وهي السلطة البابويّة وسلطةً ثانويّة تختصُّ بقسم قسم من قطيع المسيح تحت امرة الرئيس الاكبر وهي السلطة الاسقفيّة

*

لكنّ السيد المسيح الذي وضع اساس الكنيسة وعُني بتدبير نظامها بالاجمال ترك لرسلهِ وخلفائهم ان يتمّموا هذا النظام ويزيدوهُ وثاقةً ومتانةً بانشاء مناصب أخرى ورُتب جديدة يرونها مناسبةً لامتداد الكنيسة ونجاحها ولحسن رعاية اولادها حسب الازمنة والامكنة شأن الممالك الكبرى التي يوفّر سلطانُها مراتبها وادارات امورها على قدر اتساعها وعلى حسب مقتضى احوالها التي تتقلّب فيها على كرور الدهور

والكنيسة ما كادت تخرج من العليّة الصهيونيّة حيث اضرم الروح القدس بنارهِ الالهيّة قلوب ذويها ونفخ فيهم روحاً جديدة حتى اندفعت كالسيل العرمرم الى كل انحاء العالم الرومانيّ بل تجاوزت بعد قليل تخوم سيطرة القياصرة فبلغت اقاصي الدنيا. لكنّ الرسل الذين عهد الرب اليهم شؤون كنيستهِ ما عتّموا ان فهموا انّ انتشار ملكوت الله يستدعي انشاء وسائط جديدة لجمع شمل الكنائس وارتباط بعضها ببعض ليسهل ارتباطها مع رئيسها الاعلى الذي جعلهُ المسيح نائباً لهُ على الارض. ومن ثمّ رأى الحواريّون انهُ لا بدَّ ان يُجعل بين الاساقفة اختلاف ما ليس في الدرجة التي هي واحدة ولكن في الرتبة والسلطة بحيث يكون بعضهم خاضعين للبعض فيصير للاساقفة رؤساء يتوسّطون بينهم وبين حبر الاحبار واليهم يرجع الاساقفة في امورهم العاديّة دون ان يضطروا في كلّ آن وحال ان يراجعوا المركز الاوّل

والحقّ يُقال انّنا اذا تصفّحنا اخبار البيعة منذ نشأتها رأينا انّ الرسل لم يكتفوا

بان يسهروا على كل مدينة اسقفاً يقوم باعبائها بل اختاروا نخبةً من تلامذتهم جعلوهم في حواضر المدن وامهات البلاد وفرضوا اليهم بان ينشئوا في نواحي تلك البلاد كنائس اخرى يقيمون لها رعاةً يهتمون بصوالحها الروحيّة ويرعون المؤمنين تحت حكمهم ونظارتهم. وتلك هي رتبة كبار الاساقفة التي يشير اليها الكتاب الكريم في اسفار العهد الجديد. فانّ الرسول يوحنّا الحبيب مثلاً يذكر في سفر الرؤيا (١ : ١١) اساقفة سبع عواصم كبرى كان جعلها كمراكز لمدنٍ أخرى اصغر منها يدبّر كل منهم اساقفتها. وكذلك بولس رسول الامم يعهد الى تلميذهِ تيطس (رسالة تيطس ١ : ٥) ان يرعى جزيرة كريت ويرتب الناقص ويقيم لها رعاةً في كلّ مدينة. وكذا قُل عن بقيّة الرسل الذين جعلوا على اساقفة كلّ قطر ورؤساء تكون بين ايديهم ازمّة الامور لنظام ذلك القطر وسياسة مؤمنيهِ ورعاتهم معاً

فصارت بذلك كل كنيسة مركزيّة مع الكنائس المنشأة بجوارها كالولاية المدنيّة لها رئيس اكبر بمثابة واليها ولها احكامها الخاصّة وتصرّفاتها الآئلة لتدبيرها في شؤونها الروحيّة. وقد توفّرت هذه الولايات مع نموّ المؤمنين وهي كلّها مع كونها مستقلّة بالنسبة الى بعضها مرتبطة بالمركز الاعلى حيث رأس الكنيسة الاوّل وإمام احبارها الاعظم

اما السبب الذي حدا بالرسل ان يجعلوا قضبات المدن كمراكز دينيّة فهو جليٌّ واضح وهو رغبتهم الملتهبة في ان ينشروا على جناح السرعة وبطريقة سهلة الايمان بالمسيح. فانّهم وجدوا هذه الحواضر كمناور تسطع منها اشعّة النصرانيّة فيراها الجميع ويقبلون اليها ليستضيئوا بانوارها اللامعة ومنها تجري جداول الخلاص الى ضواحيها الواقعة تحت حكمها

*

على انّ بين الحواضر الكبرى التي شاع صيتها ابّان ظهور الدين المسيحيّ قد امتازت ثلاث مدن أجمع الكلّ على سيادتهنّ ورفعة شأنهنّ ألا وهنّ رومة العظمى قاعدة المملكة الرومانيّة. ثم الاسكندريّة سوق العالم المتمدّن ومخزن تجارته. ثمّ انطاكية عاصمة الشرق. فكان الشرك ضرب اطنابهُ في هذه المدن الثلاث واقام لآلهة الوثنيّة هياكل واصناماً ظنّ الناس ان سيبقى ملكها مخلّداً

ولمّا كان ملء سلطة المسيح في يد سمعان بطرس وهو مؤيد بروحهِ القدّوس

احبّ كالقائد المقدام والاسد الضرغام ان يصلي الوثنيّة حربًا عوانًا حيث عشّش شيطانها وينزل حومة القتال حيث توفّرت الاهوال فتشي الوغى وصدق المدوّ الجهنّمي الحملة في كلٍّ من هذه المدن الثلاث مباشرًا باظاكية فوطّد فيها دعائم النصرانيّة وبنى كنيسة الامم الأولى على اخربة الوثنيّة. ثمّ اقام على هذه الكنيسة احد تلامذته القديس إيوديوس وجرى الى حربٍ أخرى عبوس كانت تنتظره في سيّدة المدن. فلم يفتأ ان اوقد نارها وجاهد كفّارها وابلى البلاء الحسن في سبيل الحقّ حتى ظفر بالمرغوب وفاز بالمطلوب وثبّت عرش سلطانه الروحي في أمّ المدن واتّخذها سكنًا له ولاخلافه من بعده الى منتهى الدهور. ولم يبقَ بعد اظاكية ورومة الّا الاسكندريّة ليناجزها بطرس الصفا القتال فينكص فيها أعلام الوثنيّة. ولمّا كانت الشواغل تشغله في رومة ولم تسمح له ان يسير بنفسه الى تلك الحاضرة الكبرى ارسل اليها تلميذه مرقس فنال على يده انتصارًا باهرًا لم تمكنه الاحوال من ان ينالهُ بذاته

فهذا الانتصار المثلّث الذي اصابهُ بطرس بنفسه او باحد تلامذته على ثلاث امّهات العالم الرومانيّ كان السبب الداعي لأن تجعل هذه المدن كراكر اوّليّة للسلطان الكنسيّ فادار الرسول الهامة كنيسة رومة بذاته وجعل لكرسيّها بوحيٍ من الله السبق فوق كل كنائس المسكونة. ثم أعطى للاسكندريّة ولانطاكية سلطة دون سلطته تتمثّل في عاصمة الشرق سلطتهُ السامية. وخلاصة القول انّ الاسكندريّة وانطاكية صارتا بعد رومة مركز السلطة الدينيّة لانّ بطرس هامة الرسل بشّر فيها بالانجيل ورآهما اعظم خطرها أنسب من غيرهما ليكونا في جهات الشرق كقاعدتين تنضمّ حولهما بقيّة الكنائس الشرقيّة وتعتصم بركنهما

- - وهذا الامتياز العظيم الذي صار للاسكندريّة ولانطاكية بسبب بطرس الرسول يشهد عليهِ تاريخ الكنيسة القديم وربّما اشار اليهِ الاحبار الرومانيّون في رسالاتهم الى اصحاب هذين الكرسيين. فمن ذلك ما كتبهُ القديس ايوكنت الأوّل سنة ٤٠٩ م الى اسكندر اسقف انطاكية حيث يذكّرهُ بالبند السادس من قوانين مجمع نيقية الذي اثبت لاساقفة الاسكندريّة وانطاكية امتيازاتهم القديمة (τὰ ἀρχαῖα ἤθη) ثم يضيف الى ذلك: «فترى من هذا البند المذكور انّ كرسيّك لم ينل هذا الامتياز الفاخر لعظم شأن انطاكية بل الاحرى ان يقال انهُ فاز بهِ لانّ انطاكية كانت الكرسيّ الاوّل

الذي جلس عليه هامة الرسل (١). وقال البابا القديس جيلاسيوس سنة ٤٩٤ في براءته الشهيرة عن كتب الاسفار المقدسة القانونية وهو يذكر الكراسي العظمى وفي مقدمتها كرسي رومة: « والكرسي الثاني هو كرسي الاسكندرية لانّ مرقس تلميذ بطرس قدسه باسم سيده الهامة . . . والكرسي الثالث في انطاكية وهو كرسي شريف لانّ بطرس الرسول جلس عليه قبل ان يأتي مدينة رومة (٢). وقد كرر القديس غريغوريوس الكبير مراراً في رسائله الى اولوغيوس اسقف الاسكندرية انّ بين اسقف رومة واسقفي الاسكندرية وانطاكية اتحاداً وثيقاً لانّ هذين المقامين قد عُني بانشائهما بطرس الرسول فزيّنهما واعارهما شيئاً من سمو رتبته فصارت هذه الكنائس الثلاث كالجبل المثلث الذي لا يتقطع لها التقدم على جميع الكنائس (٣). ومما خصّ به كرسي الاسكندرية قوله (٤): « كما انهُ معلوم لدى الجميع انّ القديس مرقس البشير ارسلهُ معلمهُ بطرس الرسول الى الاسكندرية هكذا قد جرى وفاق بين الكرسي

---

(١) هذا نصهُ الاصليّ بالحرف: « Unde advertimus non tam pro civitatis magnificentia hoc eidem attributum, quam quod *prima sedes primi Apostoli esse monstratur* ». Migne PP. LL., XX p. 548.

(٢) وهذا نصهُ عن مجموع الآباء اللاتينيين لابن (ج ٥٩ ص ١٧٠): « Est ergo prima: Petri apostoli sedes Romana Ecclesia, non habens maculam, neque rugam, neque aliquid hujusmodi. Secunda autem sedes apud Alexandriam, beati Petri nomine a Marco ejus discipulo . . . consecrata est . . . Tertia vero sedes apud Antiochiam item beatissimi Apostoli Petri habetur honorabilis, eo quod illic priusquam Romam venisset, habitavit ».

(٣) اعمال الاباء لابن (ج ٧٧ ص ٢٦٩) وهذا نصهُ بحرفهِ الواحد:

« Ipse (apostolorum princeps) sublimavit sedem in qua etiam quiescere et præsentem vitam finire dignatus est. Ipse decoravit sedem in qua evangelistam discipulum misit. Ipse firmavit sedem in qua septem annis quasi discessurus sedit ».

(٤) راجع مجموع اعمال الاباء اللاتينيين لابن (ج ٧٧ ص ٢٤٣) وهذا قولهُ بالحرف:

« Sicut omnibus liquet quod beatus evangelista Marcus a Sancto Petro apostolo magistro suo Alexandriam sit transmissus, sic hujus nos magistri et discipuli unitate constringimur ».

الاسكندري والروماني شأن الرفاق الذي يجري بين التلميذ ومعلمه »

ولو تتبعنا تآليف الآباء لوجدنا كثيرًا من هذه الشهادات التي تبيّن انّ كنيستي الاسكندريّة وانطاكية انّما خُصّتا بامتيازاتهما لاجل الرسول بطرس الذي شرّفهما بشخصه الكريم او بتلميذه مرقس. ومما يستلفت انظار المتبرين انّ هذه الشواهد قد وردت ايضًا على لسان الكتبة الذين انقطعوا عن طاعة كنيسة رومة كالياقبة والنساطرة والارمن وغيرهم وقد جمع قوم من الافاضل اقوالهم في كتب ضخمة نشروها بالطبع نخصّ منهم بالذكر السيّد اقليميس داود اسقف دمشق على السريان وغبطة السيّدين البطريركين اسطفان عازاريان وعبديشوع خياط. بل لنا في كتبة العرب على ذلك شواهد صادقة لا يشوبها ريب اثبتها المشرق في احد اعداده السابقة (السنة الخامسة ص ٢١٧—٢٢٤) فانّ قومًا من المشاهير كالمسعوديّ وابن خلدون والمقريزي ينسبون تقدّم كرسيّ الاسكندريّة وكرسيّ انطاكية على بقيّة الكراسيّ لانتمائهما الى بطرس رأس الحواريّين

*

فممّا سبق يمكن ان نستنتج قضيّتين ثابتتين لا يستطيع احدٌ نقضهما الاولى انّ الاسكندريّة وانطاكية أضحتا من اوّل المراكز التي أقيم فيها كبار اساقفة لعظم شأنها وخطارة قدرهما. وفي ذلك لم تختلفا عن بقيّة المدن الكبرى كقيساريّة فلسطين وقورنثوس وقرطجنّة التي اتّخذها الرسل وخلفاؤهم كمراكز للدوائر الدينيّة في سائر الاقطار لولا انهما كانتا اوسع نطاقًا وارفع مقامًا. والثانية انّ هاتين العاصمتين امتازتا بشرف لم يصبهُ غيرهما من الحواضر وهو انّ كرسيّهما انشأهُ بطرس الصفا نائب المسيح فقاسما كرسيّ رومة في شيء من علوّ مقامه

وكأنّي بالقارئ يتصدّى لي هنا فيقول أحسنتَ ببيان اصل الكرسيّين الاسكندري والانطاكيّ وتعريف عظم منزلتهما ولكن طاش سهمك حيث زعمت انّ هذين الكرسيّين هما كرسيّا رؤساء اساقفة والكلُّ يعلمون انهما كرسيّان بطريركيّان. والبطريرك فوق رئيس الاساقفة كما لا يخفى

أجيب انّ اسم البطريرك لم يشع في قرون النصرانيّة الاولى للدلالة على رتبة كنسيّة. وانّما ورد في ترجمة الكتب المقدّسة اليونانيّة المعروفة بالسبعينيّة دلالةً على ابناء يعقوب

الاثني عشر اي رؤساء الاسباط الذين تُدعى رعاء القبائل (πατρῶν ἀρχοντες) ثم اطلقهُ اليونان على كبير الأسر البشرية الذي تنسب اليهِ فروع العيال. واستُعمل مجازاً للدلالة على الشيوخ والسدنة

ولمَّا ظهرت المسيحانيَّة بقيت لفظة البطريرك او البطرك على هذه المعاني كلِّها (١ ولم تدلَّ على رتبةٍ ممتازة في الكنيسة. وانَّما ورد اسم البطريرك بمعنى كبير الاساقفة وصاحب الكرسيّ العظيم لاوَّل مرَّةٍ في اعمال المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١ على لسان الآباء في ادعيتهم للبابا لاون الكبير فانَّهم كرَّروا الدعاء قائلين: «ليحيَ لاون البطريرك زمناً مديداً» وفي عنوان العريضة التي قدَّمتها اساقفة الكنيسة الاسكندريَّة وشمامستها الى المجمع المذكور ما تعريبهُ: «عريضة مقدَّمة الى لاون الكلّيّ الطوبى والقداسة والى عظيم الاساقفة المسكونيّ وبطريرك مدينة رومة العظمى»

فاخذ اسم البطريرك منذ ذاك الحين يُطلق شيئاً فشيئاً على اصحاب الكراسيّ الرسوليَّة الاولى كالاسكندريَّة والخاكية واورشليم بل على غيرها ايضاً مثل كرسيّ القسطنطينيَّة لما فازت بهِ هذه الكنائس من النفوذ والتقدُّم والنجاح كما سترى

وان سألنا السائل: وايّ اسم كان في الاوَّل شائعاً بين المؤمنين للدلالة على اصحاب تلك الكراسيّ الكبرى. قلنا انهُ في القرون الثلاثة الاولى لم يُعرفوا باسم خصوصيّ. وانَّما يدعوهم البعض باسم «الاساقفة الاوَّلين» (ἐπίσκοποι πρῶτοι) والبعض يسمُّونهم «رؤوساً» (κεφαλαί) كما ورد في كتاب قوانين الرسل الذي يرتقي الى القرن الثالث. وقد اطلق عليهم مجمع قرطجنَّة الثالث اسم «اساقفة الكراسيّ الاولى» او «اساقفة المراكز الكبرى» وكان اهل افريقية يعرفونهم باسم «الشيوخ»

امَّا اسم «المتروبوليت» (μητροπολίτης) وهو «المطران» فانهُ ورد لاوَّل مرَّة في اعمال المجمع النيقاوي ومعناهُ «رئيس امّ المدن» وشاع هذا الاسم وامتدَّ. ولم يكن اختلاف يُذكر في السلطة بين مطران ومطران الَّا ان بعض المطارنة لعظم شأن الحواضر التي كانوا يسكنون فيها وخصوصاً لاجل انتساب كنائسهم الى الرسل كانوا متقلِّدين

١) وردت لفظة البطريرك في الخطبة ٣٠ للقديس غريغوريوس الثاولوغس وفي اعمال القديس غريغوريوس النيصصي حيث شبَّه كلاهما الاساقفة اجمالاً برؤوس الاسباط

سلطاناً اعظم من غيرهم كما بيّنا سابقاً

ثم شاع في القرن الخامس اسم «رئيس الاساقفة» او «ارخيفسقوس» (ἀρχιεπίσκοπος) واستُعمل بمعنى المتروبوليت والمطران

ومن الاسماء التي وردت في اواخر القرن الرابع اسم الاكسرخس (ἔξαρχος) ومعناهُ القائد والزعيم وأُطلق ايضاً على اصحاب الكراسي العظمى كالمتروبوليت ورئيس الاساقفة

ثم جعل الكتبة يفرزون شيئاً فشيئاً بين هذه الرُتب كلها فاختصُّوا الحبر الروماني باسم البابا ومعناهُ ابو الآباء. ثم دعوا بطريركاً صاحبي كرسي الاسكندريّة وانطاكية لانهما ينتسبان الى بطرس وكفارة مقامهما المدنيّة. وأُطلق من بعده على صاحب كرسي القدس الشريف لمآثر النصرانية في اورشليم وانتسابها الى الرسل. ثم أُجري هذا الاسم على صاحب كرسي القسطنطينيّة بعد ان صارت مركز المملكة الرومانيّة وان لم يكن هذا الكرسي من الكراسي الرسوليّة

وجعلوا رتبة الاكسرخس فوق رتبة المتروبوليت. واعتبروا رئيس الاساقفة والمتروبوليت في درجة واحدة

هذه نبذة اولى رويناً فيها ما يختصّ باصل المقام البطريركي وقدم اسمه. وفي مقالة اخرى ان شاء الله نلخص تأريخ انشاء البطريركيّات وتعدُّدها مع بيان حقوق البطاركة وامتيازاتهم التي منحتهم اياها الكنيسة (ستأتي البقية)

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعي (تابع لما سبق)

٣ ما تستفيد سورية من لبنان

بعد تعريفنا للبنان وتطبيق اسمه مع اقوال المؤرخين لا نرى بدًّا من استلفات النظر الى فوائد هذا الجبل من حيث طوره الطبيعي